فلسفة التربيـــة

كما يراها فيلسوف الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٦ —

تطبيقات الديمقراطية على التربية والثقافة المثلى فى جماعة ديمقراطية

« إن الانسانية التى تخلصت من الرق تستطيع التخلص من الحرب »
« سير فردريك بلوك »

« يستطيع التاريخ أن يغير عقل الأمة أو يصلحه تبعاً لطريقة تدريسه »
« موسار »

عرفت فى المقال السابق كيف يؤمن « جون ديوى » وغيره بالديمقراطية كمحور « للحياة المثلى »، وكيف يريد أن يتخذ من التربية وسيله فعّالة لتحقيق تلك « الحياة » ؛ وسترى فى هذا المقال ما تتطلبه الديمقراطية فى المعلمين والمتعلمين والمدارس والمواد وطرق التدريس جميعا

١ — فى المعلم

وأنت تعرف من هو المعلم . هو الذي قال فيه شوقى إنه كاد أن يكون رسولا ، وإنه ذلك الذى يبنى أنفساً وعقولا ! ! ؛ ولقد حاول « فروبل » أن يبرر عمله « العظيم » فقال : « إنه جزء من الكون ، فعمله إذن جزء محدود فى الكون ، ومركزه يلتئم تماماً ومركز الكون ، ولذلك عند ما يفرض قوانينه على الطفل لا يفعل أكثر من إخضاعه لقوانين الوجود الخالدة » ، وقال : « تتعارض القوى فى الطبيعة لتتلاشى وينشأ منها قوة جديدة . وكذلك الأمر بين المعلم والمتعلم » ...[1] هذا المعلم يجب أن يكون « ديمقراطيا » أولا وقبل كل شئ ، ديمقراطياً فى خلقه الخاص ، وديمقراطياً فى طريقة احتكاكه بالتلاميذ حتى لا يحجر على شخصياتهم . زد على ذلك أن « الدولة » يجب أن تكون « ديمقراطيـة » معه هى أيضاً ! يجب أن تشركه فى وضع « المقرر » ، ويجب أن تطلعه على الكتب المدرسية ، ويجب أن تأخذ رأيه فى أنسب طرق التدريس لأنه المنفذ الروحى والمادى للخطط الموضوعة ، فما يجوز أن تفرض عليه هذه الخطط فرضا ، ولأنه المتصل بالعقول الناشئة فهو أقدر من غيره على فهم استعدادها ، ولأنه المجرب لهذا المنهج أو ذاك فيجب أن يكون لرأيه التقدير الواجب ؛ أما أن تبعث إليه البرامج ويساق سوقاً إلى تدريسها ، وأن يُحمل النشء على الرجوع إلى كتب يراها هو غير متمشية وما انتهى إليه من رأى ، وأن يقترح ويكتب ، ويصرخ ويستغيث دون ما جدوى ، كأنما هو فى وادٍ والدولة فى واد آخر — فذلك كما ترى هدم لركن من أركان التربية جدير وخطير ، وإغفال لتجارب ناطقة لا سبيل إلى التقدم السريع إلا بالاستفادة منها[1]

٢ — فى المتعلم

وأما هذا فما يجوز أن يكون شخصيـة سلبية تستمع إلى الدرس دون مافكر ، وتحفظه وتمليه على أساس « الطريقة الصماء » وتذهب إلى المدرسـة كارهة وتخرج منها مسرورة ، فإذا كانت الحياة المستقلة طار العلم وانمحى ، وحل الكسل والفراغ الآثم والاستمتاع الحقير ، هـذا إلى الفشل فى معالجة أهون مسائل الحياة ، وإلى الكبرياء والترفع عن « السوقة » والأعمال الحرة ! أجل ! ... ما يجوز شىء من هـذا ... ! وإنما يجب أن نسير معه على أساس البحوث النفسية الصحيحة التى تقول مثلاً إن « العقل » إذا مر فى الحياة بمشكل راح يحدده ويفكر فى وسائل حله ، فيفترض الفروض ويحققها ويمتحنها ؛ أو أن الشىء لا يثير الاهتمام ولا يعلق بالذاكرة إلا إذا كان شائقاً ومتصلاً بالحياة اتصالاً وثيقاً ... إلى آخر هذه النظريات التى نعرفها ولا نعرف السبيل إلى تحقيقها ... ! وإذن فلتكن موضوعات الدراسة على هيئة مشاكل يقف الطفـل حيالها « موجباً » أى محدداً ومفترضاً ومحققاً ومجرباً ، ولتكن بقدر الإمكان متصلة بالحياة حوله حتى يستسيغها فى مراحله الأولى ، ويقبل عليهـا بلذة

(١) أنظر فصل الأساس التصورى للتربية من كتاب : J. Adans, Evolution of The Eod. Theory

(١) ونرى من حسن الحظ أن الوزارة عندنا قد بدأت تطبق هذه القواعد تطبيقاً محموداً بما تطلبه من تقارير واقتراحات

وشغف ، وبذلك وبغيره ننتهي إلى جعل « التعليم » عمليـة لذيذة لا أهوال بها ولا مكاره ، وجعل « المعرفة » متعة سامية بريئة يقبل « التخرجون » على التزود منها أثناء فراغهم بدلا من الجلوس في المقاهي وغير المقاهي مما تعرف ومالا تعرف ياقارئي العزيز ! ، هذا إلى خلق الشخصية الديمقراطية التي تتعاون مع غيرها في المسـائل العسيرة كما تعاونت بالأمس في موضوعات الدراسة ، والتي تستطيع أن تكافح حقاً في الحيـاة وتحتقر « الديوان » وتمضي إلى الـكفاح بجرأة وبأس وإقدام ...

٣ — في المدرسة

وأما المدرسة فهي كما تعلم البيئة التي تعدنا للحياة الخارجية ، ولذلك يجب أن يشملها التغيير ، وأن تنقلب انقلاباً خطيراً ؛ ومعنى هذا أن تصبح دار عمل وتجريب شائق لذيذ مجهد كله حرية وتعاون واحترام ؛ ففيها يزرع التلاميذ الشجرة ويشاهدون نموها ويسجلونه قبل أن يقرؤا عنه ، وفيها أدوات البناء والطهي ، والغزل والنسج ، وأشغال الخشب والإبرة وما أشبه ؛ ويقف المدرس هنا ليضع الطفل أمام التجاريب ويشعره بحاجته الماسة إليها[1]. وبذلك تكون المدرسة كما يقول الأستاذ «يعقوب فام»: «صورة مصغرة للمجتمع البشري ، فهي إذن ليست وسيلة للجمعية البشرية . والفرق بينها وبين المجتمع هو أولاً أنها صورة مصغرة له ، وثانياً أنها يسهل التحكم في عواملها بخلاف المجتمع ، وثالثاً أنها غير معقدة ؛ فهي ليست إذن مكاناً للتعليم فقط ، وإنما هي للأطفال دنيا يعيشون فيها ويصرفون جهودهم ونشاطهم ثم يتعلمون » ... « ومثل هذه المدرسة لا تشوق دون جهد ، ولا تجهد دون تشويق ، وإنما يتأتى ذلك عن ربط المادة نفسها بحياة المتعلم[2] »

وعلى ذلك لا يكون الطفل فيها دائرة معارف متحركة فحسب وإنما يكون آخذاً بناصية الوسائل والأدوات والمصادر التي تساعده في البحث الذي يجريه بنفسه متعاوناً ومسترشداً . وهكذا يستطيع أن يعيش وينمو على أساس الديمقراطية والعلم ...

ههنا إذن تعاون بحت ، وتنافس في الكيف لا في الكم ، وتعليم للحياة بالحياة ، وعمل منتج ذو غاية ، ودرس لمواد متصلة لا منفصلة انفصالاً لا مبرر له ، واحترام للعمل والعاملين ، واكتساب للنظرة العلمية التجريبية الصحيحة ، علم مقرون بعمل ، وعون إلى جانب فقير ، وعمل طامح مستبشر يرنو إلى شيء أكثر من ورقة ممهورة بخاتم الوزير !

٤ — في الثقافة

ويبقى بعد ذلك أن نقرر روح الثقافة المثلى في الجماعة الديمقراطية . وحسبك أن تعلم أن هذه الثقافة لا تفرق بين النظر والعمل تفريقاً كبيراً ، وتنظر « للتغير » كقانون عام يتطلب المرونة المطلقة والتجديد السريع ، ولا تأخذ بغير الطريقة العلمية التي لا طلاسم فيها ولا خزعبلات ؛ ولا تفرق بين مسلم ومسيحي ويهودي خشية أن تلوث تاريخ العالم بالدماء كما قد تلوث طوال الماضي الأثيم . الدين عندها لله والجميع لديها إخوان . ثم هي لا تستبعد الفكر قط ، ولا تغرس فيه الأفكار الاجتماعية أو السياسية الخاطئة بالايحاء الآثم . العقل عندها مقدس فما يجوز أن تشوهه ، ومثلها الأعلى في قيمة الدراسات هو ما تقدمه من خير يكمل الفرد والجنس[1] ، ومذهبها التوازن بين الجسد والقلب والعقل حتى لا يؤدي الأمر إلى وحشية رائعة من جانب أحد أركان هذا الثالوث ضد الركنين الآخرين[2] وغايتها خلق ذلك الرجل المثقف الثابت في تتبع ما يريد ، المستعد لتعديل خطته إذا لزم الأمر ، المتفتح العقل لكل ما تقدمه العلوم والفنون ، النابذ للأحكام التقليدية متى ما اقتنع بخطئها ، المرحب بالأفكار الجديدة ، ولكن بعد نقدها وتمحيصها ، المتقدم للمساعدة كلما استطاع ، والمقنع المجتمع بأهليته للثقة والاحترام . ذلك الرجل الذي لا يسيء إنساناً بقصد أو بغير قصد ، والذي يترك ما لا يعرف لأنه لا يقوى على معرفته ، والذي هو أبداً مطمئن البال ومصدر راحة لنفسه ولغيره . ذلك الذي هو حكيم لسعة اطلاعه ، والذي لا يحكم إلا بعد تمحيص وروية[3] والذي يحسن مخاطبة الناس جميعاً برقة ولباقة وظرف ؛ والذي يعرف معنى ما يقول ويتكلم بصراحة ووضوح وجلاء ، ذلك الذي يعبر بفكره

(١) أنظر كتاب Ch. Ridery. Classification des Caracters P 194
(٢) أنظر له كتاب التربية والأخلاق

(1) Bode Amode Phelos. Of Ed.
(2) Ch. Mason An essay Towards a Thilos. of Ed.
(3) Ruediger Principle of Ed ucetion